الأدب وطلقات المدافع !

« إلى صديقنا الأستاذ محمد عبد الغني حسن »

للأستاذ علي متولي صلاح

من أبعد الأشياء عن الصواب أن نفهم الأدب على أنه كلام ! وأن نفهمه على أنه سواكب ألفاظ رنانة جميلة ، ومعارض بلاغة تأخذ بالسمع وتخلب اللب ، ويرقص لها الإنسان كما يرقص الزنوج — مثلا — على دقات الطبول !

ذلك فهم للأدب بعيد عن الصواب أكثر من البعد الذي بين المشرقين ! وقد نسمعه من بعض الجاهلين فلا نلتفت إليه ، أو نسمعه من غير رجال الأدب فنعده من باب الخطأ في فهم شيء لم يعنفوه ولم يدرسوه . . أما نسمعه من رجال الأدب أنفسهم الذين قضوا في الأدب حياتهم ، والذين نالوا حظا من دراسة الأدب وفهمه ، ومارسوه ممارسة عملية طوال حياتهم ، فذلك خطر على الأدب شديد ، وذلك انحراف بالأدب عن منهجه الصحيح القويم ، أو هي نكسة بالأدب إلى الوراء يوم كان سداه ولحمته اللفظ ولا شيء سوى اللفظ !

والذي يقرأ ما كتبه صديقنا الأستاذ محمد عبد الغني حسن في العدد الفائت من مجلة « الرسالة » عن المفاضلة بين « السلاح الصوال » وبين « اللسان القوال » لا يحسب مثل هذا الكلام يصدر إلا عن أحد اثنين : إما جاهل بطبيعة الأدب ووظيفته ومدى اتصاله بالحياة ، وأنا أعيذ الأستاذ الصديق أن يكون ذلك الرجل . وإما عدو للأدب متحامل عليه ويحرف الكلم في وصفه عمدا لينال من مكانته ، وليس الأستاذ الصديق ذلك الرجل بطبيعة الحال !

يقول الأستاذ « . . . ولكني أرجو أن تحمد في أمتنا الأفعال لا الأقوال » ويقول « فنحن اليوم إلى سلاح صوال ، أحوج

وهذه الكلمة هي كلمة « لا » . قلنا للقوة الضخمة التي لم تتعود أن تسمع هذه الكلمة . . قلنا وأصررنا عليها واضطرت القوة الضخمة لأن تسمع لها إذعانا . فنصرت شعبك الذي تعود النصر وأضفت إلى صفحاته الخالدة صفحة جديدة . فمن الحق أن نشرف بأن نضمك إلى أسرتنا الجامعية من أجل هذا كله

ولكننا قوم لا نتأثر بالمجد السياسي وحده ، نحبه ونكبره ولكننا نحب قبل كل شيء شيئا آخر هو هذا المجد العلمي . وأنت يا سيدي الرئيس عالم قبل أن تكون سياسيا . درست السياسة والفقه الحديث في أوربا ، ودرست العلوم الحديثة المختلفة في وطنك ، ولم تضع عزلتك ولا عملك في السياسة وحدها ، ولكنك شاركت في العلم على اختلافه . . شاركت في العلم القديم وشاركت في العلم الحديث . ألست قد ألفت في اللغة الفرنسية كتابا عن الوصية على مذهب الشيعة ؟ فقد ألفت إذن كتابا في الفقه الإسلامي القديم . ثم إنك قد ألفت في الفقه الدستوري المقارن ، قارنت بين الفقه الدستوري العربي في أوربا وبين الفقه الدستوري الحديث في إيران . ثم ألفت في الفقه العالمي فقارنت بين التشريع العالمي الحديث في أوربا وبين التشريع العالمي في إيران ، ثم شاركت في الفقه القانوني عامة فألفت في تبعات الموظفين أثناء تأدية وظائفهم ، وألفت في الشركات المساهمة ، وألفت في مبدإ تسليم المجرمين السياسيين . فأنت فقيه قديم ، وأنت فقيه مدني ، وأنت فقيه سياسي إداري . فإذا جمع شخص من الأشخاص علم الفقه على اختلاف عصوره ومعانيه ومذاهبه وأنواعه إلى هذا الجهد السياسي الضخم وإلى هذه المقاومة السياسية الهائلة . . كانت جامعة فؤاد الأول التي أنشأها فؤاد العظيم لتضرب أرفع المثل لأبناء مصر فيما يرفع الحضارة ويعلي شأنها ، وينشر الأخلاق ويحببها إلى الشعوب ، ويحبب إلى الشباب البحث العلمي ، كانت هذه الجامعة خليقة أن تشرف بضمك إليها . . سعيدة بأن تعدك اليوم أحد أعضاء أسرتها

طه حسين

منا إلى لسان قوال » ، ويقول :

هذه الأقوال لا تحمى شهيدا ... من ضحايا الحق، أو تشق أواما
أطلقوا الدفع . . . لا حنجرة ... وارجعوا للسيف في الحق احتكاما

ويقول :

لا تردوا عنكم غدر الأعادي ... بالعبارات نثارا ونظاما ...
الكلام اليوم لا يحمى حقوقا ... والبيان اليوم لا يرعى ذماما ..

وهذه دعوى خطيرة جدا على الأدب ، ويزيد خطورتها هنا أنها صادرة عن أديب !

فالأدب ليس كلاما لا طائل وراءه ولا نفع فيه ، لأنه لا يحمى شهيدا ولا يرد غدرا ولا يحمى حقوقا ولا يرعى ذماما ، بل إن الأدب يصنع كل ذلك وأكثر جدا من ذلك. والكلمات كما يقول هازلت : « إنما هي أفعال فإذا تكلمت فقد فعلت ! » والكلمات — كما يقول جان بول سارتر زعيم الوجودية — هي « أسلحة نارية مشحونة بالقذائف، وأن الإنسان إذا تكلم فقد أطلق ! » وليست الكلمات — كما يقول سارتر أيضا — « نوعا من النسيم يتوهمه أصحاب نظرية الأسلوب البحت يجرى على سطح الأشياء فيمسها مسا خفيفا دون أن يغير شيئا فيها » وأنا أسأل الأستاذ لماذا يكتب الكاتب ؟ أيكتب ليسجل خواطره الخاصة لنفسه حتى يمكنه استعادتها كلما عن له ذلك ؟ لو كان الأمر كذلك لكفاه أن يخط بضع ملاحظات سريعة على الورقة يسترجع بها خواطره المستقرة في أعماق نفسه كلما شاء ! لأنه سيذكر هذه الخواطر في يسر وسهولة كلما رجع إلى هذه الملاحظات السريعة ، ولكن هذه الملاحظات السريعة ليست من الأدب في شيء ، فلماذا إذن يكتب الأدباء؟

إن الأدباء يكتبون ليدعوا القراء — والقراء هم الحياة — إلى عمل من الأعمال ؛ وليهيجوا في نفوسهم عاطفة من العواطف ، وليؤججوا في قلوبهم الحقد والكراهية — مثلا — للأعداء ، والحب والمودة للأصدقاء ، والحقد والكراهية يؤديان بصاحبهما إلى عمل ، والحب والمودة يؤديان بصاحبهما إلى عمل آخر ! ألم تر إلى العرب الأقدمين كيف كانت القبيلة منهم تقيم الأفراح إذا ظهر فيها شاعر ! لأن الشاعر في اعتبارهم هو حامي الذمار ، والمدافع عن شرف القبيلة ، والتصدي بلسانه للأعداء ؟ ألم تر إلى الأوربيين كيف ماتت فيهم اليوم فكرة الفن للفن l'art pour l'art — مع أن الأدب عند أصحاب هذه النظرية ليس كلمات وألفاظا فقط ؛ بل إنه ذلك وأشياء أخرى غير ذلك ! — ماتت هذه الفكرة عند الأوربيين اليوم ، وأصبحت كلمة « الفن للفن » عندهم — وهي ما يطلقون عليها « الفن الخالص » — مرادفة تماما لكلمة « الفن الفارغ » !!

إن الأدب يا سيدي هو كل شيء في الحياة الآن ، أو على الأصح ، هو أصل كل شيء الآن ، وعلى هذا الأساس يحمل سارتر الأدباء مسئولية ما يوجد في الحياة من رذيلة وقبح واستعباد وظلم واستغلال وما إلى ذلك ، ويجعلهم أول المسئولين عن جميع هذه المفاسد قبل كل إنسان آخر ؛ لأنهم الموجهون للدولة، والمرشدون للناس ، والكاشفون للسوء ، والدالون على الخير ، والمنبهون إلى الشر ، والفاضحون الأشرار ، والمادحون الأخيار ، والمنشطون عزائم الناس ، والمستحثوهم على الذود عن الوطن ، والمستنفروهم إلى الحرب والضرب والدفاع عن بلادهم ...

يقول برنارد شو : « كان الإنسان في الأزمان الغابرة سلاحه السيف ، وظل هذا السيف يصغر ويصغر حتى ظهر القلم ! »

أما الدعاية وقوة تأثيرها واعتبار الدول لها الآن في المحل الأول من الأهمية في الحرب والسلم على السواء ، فعندي أن الحديث في ذلك معاد مكرور لأنه لا يخفى على إنسان

إن الكلام يا سيدي ليس بهذا الهوان والضعف الذي وصفته به وأنت الأديب القوال ! إنه شيء أخطر جدا من هذا وأبعد أثرا في الحياة من هذا !

وحيا الله الأستاذ العقاد حيث يقول هذا البيت الحكيم : —

ما دام في الكون شيء للحياة يرى ... ففي صحائفه للشعر ديوان

علي متولي صلاح